الروائي الفلسطيني أحمد رفيق عوض:

انا لا اعرف ما هي الحداثة ولكني اعرف الدبابة الاسرائيلية جيدا!

رام الله ـ «القدس العربي»:

للتاريخ سطوته «وللأمكنة رهبتها وجمالها» فكيف اذا ما أضفنا اليهما الأسطورة!!

فمن رواية «العذراء والقرية» الى قدرون «آخر القرن» القرمطي «مقامات العشاق والتجار» «عكا والملوك» وأخيرا «بلاد البحر»، يسافر الروائي أحمد رفيق عوض الى عوالم ومدن نعرف بعضها والبعض الآخر ندركه بذاكرتنا الجماعية. يرسم شخصيات يتمثلها ويحاورها باحثا عن أجوبة لأسئلة كثيرة وكبيرة تطرح نفسها من خلال واقع عربي متردٍ لا يحتمل الترف الفكري يطرح أسئلته ويعلن مواقفه من كل شيء كمواطن عادي وككاتب روائي (عينه على واقعه ومجتمعه).

هنا حوار معه:

■ يلاحظ القارئ المتتبع لأعمالك الروائية أنك تسير بطريقين متوازيين «الكتابة التاريخية» وذلك من خلال روايات «القرمطي»، «عكا والملوك» و«بلاد البحر» والطريق الثاني هو الحدث الفلسطيني السياسي والاجتماعي كرواية «آخر القرن قدرون» مقامات العشاق والتجار حتى بلاد البحر كانت مزيجا من التاريخ القديم والحديث والمعاصر فما هو مشروعك الروائي؟

■ بداية أود ان أنوه الى أنني لا أكتب التاريخ بالمعنى الاحترافي. أنا أكتب روايات التاريخ موضوعها. حقيقة أنا منشغل بقضية الهزيمة والفساد مشغول بسؤال الحضارة العربية والاسلامية الكبير مشغول بعذابات العربي المسلم. هذه انشغالاتي الكبرى وبالتالي كتبت في موضوع التاريخ كما كتبت بالأحداث الآنية والحالية لأنني أرى الصورة واحدة وهي ان هناك عصور هزيمة وعصور قوة وأنا مشغول بهذه الثنائية ثنائية القوة والضعف ثنائية الهزيمة والنصر والاذلال والحرية لذلك عند ذهابي الى التاريخ لا أذهب من أجل ان أعيد لهذا التاريخ نصاعته بقدر ما أذهب حتى أسأل وأتلقى الأجوبة وبالتالي ـ ومع احترامي لما قلته وهو توصيف صحيح ـ ولكننا نختلف بالنتيجة أنا أكتب عن الانسان العربي المسلم في مواقعه التاريخية المختلفة.

■ «العربي المسلم» قد يهيأ للقارئ ان الغير عربي والغير مسلم لا يكتب عنه؟

■ لا لا «العربي والمسلم» هذا ما أعنيه شعوب الحضارة العربية والاسلامية هم العرب وغير العرب فهي لا تقتصر على العرب فقط، فمثقفو القرن الرابع الهجري وحتى العاشر الهجري كانوا في معظمهم من غير العرب ويخطئ من يظن ان الاسلام يجب ان يكون عربيا. الذين خدموا الاسلام لم يكونوا عربا دائما وأنا منتم الى ذلك أضف أيضا العرب المسيحيين الذين قدموا للحضارة الاسلامية الكثير جدا فمن الأخطل الكبير حتى الأخطل الصغير وهناك المترجمون المسيحيون. النهضة العربية الجديدة أقامها المسيحيون بمعنى ان هذه الحضارة عميقة وهذه حضارة ماصة وليست طاردة أي أنها تستوعب الآخر وتندغم معه وتدغمه تدمجه وتندمج معه هي حضارة منفتحة وليست مغلقة.

■ استكمالا للسؤال الأول ابتعدت في رواياتك عن الدارج أو التقليدي من القصص في رسم الشخصيات وسرد الأحداث فمثلا شخصية صلاح الدين وهي شخصية ذات بعد أسطوري في ذهنية وذاكرة المجتمع العربي والاسلامي، نرى ان صلاح الدين هزم في عكا ولم تتحرر الا بعد مماته بمئة عام على عكس ما هو راسخ في أذهان الناس فهل تتعمد كشف حقائق جديدة أو ملتبسة على القارئ؟

■ نعم ذهبت في التاريخ الى مناطق أكثر اشكالية والمناطق الأكثر اعتاما والتي لا يتحدث عنها الوعي العام الشعبي فأذهب ـ أو على الأقل أدعي ذلك ـ الى المناطق الاشكالية تماما بمعنى ماذا نريد من تاريخنا؟ ماذا نريد من أبطالنا؟ كيف نرى الأبطال؟ وكيف تصنع البطولة؟ كيف يصنع البطل؟ سؤال مشغول به تماما. البطل في التاريخ ليس فردا. عندما يظهر البطل في التاريخ لا يظهر كفرد. هو نتاج حاجة مجتمعية هناك حاجة ضرورية لظهور بطل. في رواياتي أحاول ان أجد مفاعيل البطولة» البطولة معقدة جدا والبطل معقد. كيف يظهر البطل؟! متى يظهر؟! ما هي الشروط المناسبة لظهوره؟! هل هو فرد أم جماعة؟! هل هو مزايا شخصية؟! لذلك ذهبت الى صلاح الدين أثناء هزيمته وذهبت للأشرف بن قلاوون في لحظة انتصاره وغبائه!!....

■ وذهبت الى بطل نقيض في رواية القرمطي...

■ نعم هو أبو سعيد الجنابي لم يكن بطلا بالمعنى الحضاري وهذه أيضا مشكلة. النصر بحاجة الى أبطال. البطولة معقدة جدا المجد معقد جدا. أنا لم أصل الى نتائج حتى أفرح بها لأنه عندما تظهر البطولة يظهر النصر. كيف يمكن ان تظهر البطولة والنصر معا؟! لماذا أسأل هذه الأسئلة كفلسطيني يعيش تحت الاحتلال؟!....

■ لأننا بحاجة الى بطل...

■ نحن بحاجة الى بطل تخيل الآن ـ لا سمح الله ـ نحن على أبواب حرب أهلية حرب بين الأخوة في حرب كهذه لا يظهر أبطال يظهر أنصاف رجال أنصاف أشخاص أنصاف قلوب....

■ يمكن ان نقول يظهر بطل لكن مشوه؟

■ لا البطل ليس مشوها لو كان مشوها لما كان بطلا. البطل يجب ان يكون بريئا وساذجا، يرى الألوان أبيض وأسود فقط لا يعرف الألوان الأخرى. البطل يجب ان يعبر عن الجماهير تماما هو مرآتهم. لاحظ مانديلا مثلا يعبر عن شعبه لدرجة أنه عندما وصل الى قناعة مفادها عدم جدوى بقائه في الحكم رحل!! البطل هو الروح الشعبوية وليس النخبة. هو صريح وواضح وقد يبدو ساذجا. أنا عندما أسأل هذه الأسئلة وأنشغل بها عمليا تكون عيني على واقعي ومجتمعي.

■ اذن هل تقبل بالقول ان رواياتك اسقاط تاريخي؟

■ أنا لا أحب مقولة اسقاط تاريخي أفضل ان أقول ان التاريخ متشابه ودائما هناك نفس النتائج وليس بمعنى الاسقاط دائما هناك «عدل وظلم» «ظالم ومظلوم» «أسياد وعبيد» وحركة البشر على امتداد التاريخ والقيم واحدة والصراع واحد المشكلة في الماديات فقط. كان الانسان يقتل بالحجر ثم بالسيف ثم الصاروخ والله أعلم بماذا بعد أيام!! التاريخ واحد. هناك مقولة لطيفة جدا (لهيغل) وهي «أن التاريخ حلزوني نفس الدوائر لكنها تكبر وتتسع لا أكثر ولا أقل» وهذا جزء من ابداع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بحيث نبقى نقول دائما هناك أمل. أتعرف لو لم يكن هناك نفس النتائج في التاريخ لانعدم الأمل. المظلومون دائما يقولون أننا سننتصر على الظالمين والظالمون يقولون سنطور أدواتنا لقمع المظلومين رغم ان التاريخ يعطي نفس النتائج كما قلنا ولكن كلا الفريقين لديه أمل للانتصار، فأنا لا أذهب للتاريخ كي أسقط وانما لأجد أجوبة، فمثلا في رواية بلاد البحر ـ وأنت كتبت مقالا جميلا عنها ـ أقول ـ ببساطة ـ جاءنا احتلال مجرم احتلنا ما يقارب 300 عام ثم جاء سلطان ـ غبي ـ اسمه الأشرف حرقهم بل نسفهم عندما كان يأتيه وفد الصليبيين لم يكن يفاوضهم أو يتكلم معهم ولا ينظر اليهم حتى انه قتل رسلهم قطع رؤوسهم هو لا يريد ان يسمعهم وفي النهاية أخرجهم عراة. هذه هي النقطة الرئيسية أتيت غازيا احتللتنا 300 عام وخرجت عاريا عاريا بما تعنيه الكلمة وليس بالمعنى المجازي ثم أحرق الأشرف المدينة. أريد ان أقول أو لست أنا بل التاريخ الذي يقول المحتل الذي لا يعرف أسرار هذه البلاد سيعود من حيث أتى عاريا (مشلح) فهل سيخرج اليهود عراة؟! هل سيظهر أشرف ما؟ رجل اسمه الأشرف؟...

■ هل سنحرق عكا مرة أخرى؟!

■ نعم سؤال جميل حسنا سأسأل سؤالا باعتباري أدعي أنني روائي يحب الانسانية لماذا يا أخوال.... توصلنا لمرحلة تجعلنا معها نحرقك فيها ونحرق عكا أنا لا أريد ان أحرقك لذا قلت في نهاية الرواية يا عكا يا جميلة يا كل شيء لماذا نحرقك ؟! لماذا نندفع الى حرق مدينتنا؟ هل نحرق مدننا حتى يفهم عدونا أننا لا نريده؟! الظالم يحرق ما فيه من انسانية يدفعني كي أدمر مدينتي. الأشرف كان واضحا قال: أنا أيضا بلا كبد اذا كان المحتل بلا كبد اذن أنا أيضا بلا كبد. نحن الاثنين اندفعنا خارج دائرة الانسانية. البعض يقول ـ خاصة المسلمين جدا ـ ممنوع ان نخرج من دائرة الانسانية حتى لو كان عدونا غير انساني أنا كأحمد رفيق عوض لست شيخا ولست ابن حنبل أنا مواطن عادي ومن حقي ان أقول أنه يرد على الظلم بظلم الذات أيضا. التاريخ يعطيني نتيجة مرعبة التاريخ ليس لأحد. لا يقل لي (المستر) بوش أو موفاز (العبقري) ان التاريخ له الماضي والمستقبل والحاضر «يا حبيبي مش الك» الله من خلق التاريخ ليس أنت. جزء من ذهابي الى التاريخ كي أرى كيف يتكلم الجلاد وكيف تتكلم الضحية.

■ لذلك قلت في روايتك لا وقت لدينا كي نقدم نموذجا انسانيا فريدا؟!

■ بالضبط وعلى فكرة يحيى يخلف انتبه الى نفس هذه النقطة. قال لي انك تشاؤمي فقلت له بالعكس الأمل قوة غامضة ليست حقيقية لكني أفترضها كي أعيش. الاحتلال لا يسمح لي بأن أقدم نموذجا. وهذا جزء من أوهام المنظمات الغير حكومية والسلطة أيضا هذا كلام فارغ واعتباطي. اسرائيل لن تسمح لنا ان نقدم نموذجنا لماذا؟ لأنه أولا محتل خاص في التاريخ فريد من نوعه لا يشبه الاحتلال الفرنسي أو الاحتلال الأبيض لروديسيا. هو يقول أنه خاص وأن التاريخ مطلق له وأن الله أعطاه صك الوجود والتفوق. لذا نحن نرفع من مستوانا الأخلاقي والروحي في نضالنا لأن المجرم الذي يحتلنا مستواه رفيع. العالم يسمع بنا وبقضيتنا لأننا نقاتل احتلالا فريدا لو كنا نواجه احتلالا آخر لما اهتم بنا أحد محتلنا يحتل التاريخ أيضا!! هناك من يقول ان التاريخ يهودي يا صديقي لاحظ ما يقولون «السيد المسيح يهودي»!! لاحظ نشوء عقيدة جديدة تسمى الصهيونية المسيحية هناك فكر «قيامي» يعتقد بنهاية العالم ونهاية العالم تفترض قيام دولة اليهود وظهور المسيح مباشرة. فلسطين هي مسرح هذه الأحداث وهذا الفكر القيامي ما اكتبه في رواياتي جزء من هذه الصورة.

■ ننتقل الى سؤال آخر وان كنا سنبقى في الاطار التاريخي. في روايتي «بلاد البحر وعكا والملوك» استعنت بشخصيتين تاريخيتين كي تساعداك في سرد الروايتين أبن جبير في «عكا والملوك» وأبو الفداء في «بلاد البحر» ما رمزية هاتين الشخصيتين؟

■ هناك تشابه كبير. ابن جبير الرحالة المغربي الذي قدم الى المشرق ابان فترة الحروب الصليبية كان عصبيا متدينا كان لا يخاف أو يخجل من ان يشتم حتى الفرنجة رأى الاحتلال بأبشع صوره وحالاته. لنا. كان اذا دخل حواضر الفرنجة المحتلين يبدأ بشتمهم وكذلك الحال اذا دخل حاضرة عربية وقال أعجب من ذلك قال: «ان الدين في المغرب أما المشرق فبدع وضلالة» عندما رأى الفلسطينيين يعملون عند الفرنجة تماما كما يحدث معنا الآن مع اليهود فعندما رأى ذلك قال: «الناس في عافية والدنيا لمن غلب!!» وقال بما معناه: عندما أدخل حواضر الفرنجة أرى النظافة والعدل والقانون وعندما أدخل حواضر المسلمين أرى وساخة المكان والظلم وغياب القانون» فابن جبير كشف الواقع البنيوي الاجتماعي المهزوم في العصر الصليبي. شعرت أني أشبه هذا الرجل بشكل من الأشكال كمواطن ناقد ـ لكني لست متصوفا مثله طبعا فابن جبير حج مرتين حافي القدمين لأنه سكر مرة فما بالك بالذي يجب ان أفعله أنا؟!! ـ ابن جبير انتبه للأشياء ويقول عن قرب شديد كيف كانت الحياة تحت الاحتلال.

أبو الفداء كان أيضا في دائرة الحدث هو أمير ومؤرخ ومقاتل مثقف ودمث وكان ابن مدينة محتلة مطرودا منها وصديقاً للسلطان الأشرف. أبو الفداء لديه نزعة انسانية جميلة على عكس ابن جبير أو ابن الأثير ففي كتابه «مختصر تاريخ البشر» كتب أنه كان يغضب اذا قتل المسلمون المئات من الفرنجة وعندما فتح المسلمون طرابلس حزن لرؤية عشرة آلاف جثة وكتب عن مدى تأثره بهذا المشهد. أعجبني ان مؤرخا اسلاميا استطاع ان يفهم ان الحرب بشعة ولكنها ضرورية. أعجبتني فكرة ان لا بد من حرب ما لتقنع ابن كلب ما بعدم حربنا واحتلالنا!!

لذلك جعلت أبو الفداء يقول لي على امتداد الرواية ما الذي نريده من التاريخ قلت على لسانه في بلاد البحر جملة ذكية ان لا العادل ولا الظالم يستطيعان ان يمتلكا شيئا. مجرد أوهام كبرى. أبو الفداء رأى الآخر لا أدعي أنه أحبه لكن حاول ان يسحبه الى صفه ان يعطيه فضاء انسانيا مثل محمود درويش الآن عندما يكتب عن اليهود أما ابن جبير فقد رأى الأنا وانتقدها.

■ المرأة، الدين، الجنس» هذا الثلاثي المحرم محرم الحديث عنه في المجتمعات المحافظة والتقليدية كيف تعمل على توظيف هذه العناصر الثلاث؟

■ في عصور القوة في الحضارة العربية والاسلامية لم يكن المجتمع يرى الحديث في الجنس والسياسة والدين (تابوهات) أو أمورا محرمة. الشعر الأموي والعباسي تحدث بكلمات وألفاظ لا نجرؤ حاليا ان نذكرها. عندما يكون الانسان ضعيفا ومهزوما يخاف من كل شيء من الكلمة والحركة. عدم الحديث عن الجنس هو هزيمة كبرى وكذلك السياسة عندما يكون الشعب قويا وحرا يتكلم في السياسة مثله مثل الحاكم. في عصور القوة الحاكم لا يعني شيئا. في التاريخ الاسلامي هناك قصة بين السلطان قطز والامام العز بن عبد السلام تخيل هدد السلطان قطز ببيعه بسوق النخاسة اذا لم يقاتل المغول في فلسطين وعندما رفض قطز غادر العز مصر فلحقه الكثيرون الأمر الذي أجبر قطز ان يلحقه ليسترضيه فلم يرض عنه الا بعد ان قبل قطز حذاء العز وتعهد بمقاتلة المغول!! عندما لا نتحدث في الجنس والدين والسياسة نكون أضعف ما يكون. حاولت ان أتحدث في هذه المواضيع دون ان أكون مبتذلا أو مسفا وبعيدا عن الاثارة الجنسية تحدثت عنها باعتبار هذه القضايا الثلاث اشكالية في مجتمعنا العربي والاسلامي.

■ أريد ان أسأل هذه المرة سؤالا من صديقنا القاص زياد خداش. دائما تستلهم التاريخ تضيئه تكشف أسراره هذه أمور رائعة نحترمها لكني أتساءل أين أحمد رفيق عوض الانسان بهواجسه الشخصية وأحلامه وأين أسئلة الوجود لديك؟

■ الشخصيات التي أرسمها وأتحدث عنها في التاريخ هي أيضا تحمل هواجسي وأسئلتي وتأملاتي وأنا أدعي الآن أني كاتب محترف فالرواية بالنسبة لي ليست أحلاما شخصية أو من أجل مجد شخصي. الرواية أصبحت جزءا من عملي الذي أعيش منه وأقتات منه فأصبحت الكتابة احترافا لدي. الفرق بيني وبين زياد هو ان قصصه جزء منه أنا لست كذلك. رواياتي بعيدة عني. النص الأدبي الآن على الأقل بهذه المرحلة لا علاقة له اطلاقا بسلوكي اليومي ولكن له علاقة بتأملاتي ونظرتي للأشياء. قصص زياد خداش مثل القصائد لها علاقة بمشاعره الشخصية وباتصال وجداني ما به لكن روايتي لها هدف محدد ويكفي ان نقول نحن هواة «هذه المرحلة انتهت» عاملني كمحترف فعندما أكتب رواية أكتبها بأقصى ما يمكن من (الوظيفية) بين قوسين حتى لا أفهم خطأ.

■ الحديث في السياسة والفساد والوطن والحروب وموقفنا منها يدعي البعض ان هذا عمل مباشر وليس حداثويا ومنهم من يقول «شعاراتي» كيف لنا ان نكتب أو نذكر فلسطين في عمل ابداعي ما دون ان نتهم بالشعاراتية؟

■ هذا ظلم للمشروع الأدبي الفلسطيني ككل. أنا مثلا من جيل كبر ونما وعيه في منطقة تعج بالحروب منذ السبعينيات حتى اليوم، هناك حروب وصراعات أنا لست من الأرجنتين أنا ابن هذه المنطقة التي تنهشها النزاعات. وبصراحة أنا لا أفهم ما هي الحداثوية بالضبط وأرى ان فلسطين والقضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية تحمل أهدافا كثيرة والكتابة عن فلسطين مرعبة جدا ومؤلمة، فالوهبة الكبيرة تصوغ الواقع بطريقة ابداعية والموهبة الصغيرة تصوغه بطريقة الى حد ما فجة، لكن أنا مع الوضوح والصراحة ومع السياق الفني الجميل أنا لا أعرف الفرق بين الشعاراتية والتسجيلية والوثائقية وما بين الحداثوية أنا أعرف ان الدبابة الاسرائيلية واضحة جدا في الشارع الفلسطيني لذا علي ان لا أقابلها بنص موارب أو رخو نحن بحاجة الى نص قوي وواضح.

التقاه: توفيق العيسى

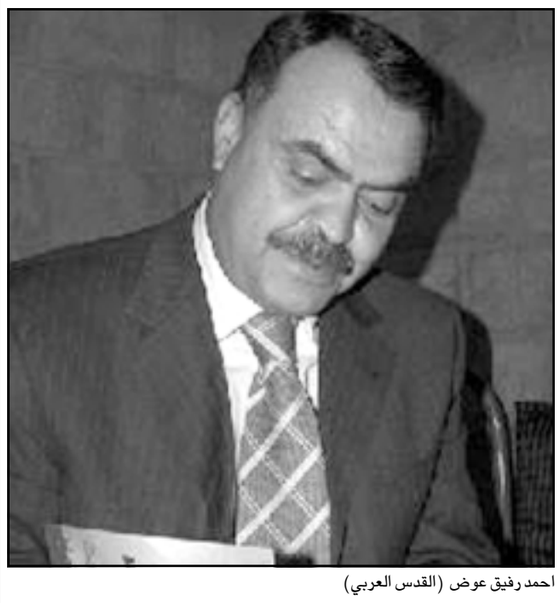

احمد رفيق عوض (القدس العربي)

تلك البلاد التي تختفي: كانت جنائنها منفى لكتاب الوحي

فاروق يوسف*

1

■ هل خدعنا العراق؟ خدع البشرية كلها. لا حبر بل سخام، ذلك الذي يسود صفحات دفاتره المفتوحة على الغيب. لا ماء بل دم، ذلك الذي يهذي في نهريه بلغة لا يفهمها أحد. أول الكتابة كان: مساميره وهبت اليد خيالا تجريديا نضرا. أول التقنيات: دارت عجلته بإلهام ناتئ صنع للكون مرآة على الأرض. أول القوانين: حجره البازلت الذي لا يزال يشف عن روح العدالة الغائبة. أول الدمى: ارواحه المتعددة التي سكنت قبضة طين. أول المسافرين المتأملين: جلجامشه الزاهد بملكه من أجل عشبة تضمن له خلودا قلقا هو أشبه بالعيش على الحافات. أول القوارب: مغامرته وهو يشق الماء عنوة ذاهبا الى مناجم الذهب. أول القرى: أرضه التي انفتحت على خيال نباتها فحلت السكينة في الصدور. أول المعابد: زقورته التي جعلت من هواء سلالمها رقي تقود مباشرة الى العرش. أول الدول: حيث تخلت آلهته عن جزء من عصا سلطتها للبشر. اول الاختام: يرقاته على الطين تفوح برائحة الخلق. هو المزيج الذي وهب التاريخ اختلاف حواسه. ولولم يكن هناك عراق، لكان التاريخ شيئا آخر. لو تأخر العراق قليلا لاحتجنا الى زمن طويل مضاف. لو اختار السومريون مكانا آخر لهبوطهم في لحظة الخلق، لكنا قد حصلنا على ايحاء مختلف لحضارة أخرى. لن يكون هناك دجلة ولا فرات. لن يكون هناك سمك ولا قصب (بردي).

لن يكون هناك طين ولا عشب. لن يكون هناك ابراهيم ولا شجرته المثمرة انبياء وتائهين وسحرة. لن يكون هناك عشتار ولا انكيدو ولا حتى جلجامش. لن تكون هناك جعة. العراق هو مكانه وليس صفته في سيرة البشر. ولكن هل كان ذلك العراق مكانا على الارض فعلا؟ يقول الباحثون أن السومريين اختفوا بعد المأساة التي حلت بدولة أور الثالثة. (تعلموا الدرس جيدا: مدن تصنع دولا). يقولون أن ملكهم الضائع لم يعد فذهب الشعب من بعده الى غيابه. عاد الى السماء، من حيث أتى. شعب لم يخلف ضحايا ولم يترك من أثر سوى ما يفتك بالمخيلة ولم ينسخ سواه: عاد الى الصفر الذي بدأ منه. فوزي رشيد، العالم الآثاري (أين هو الآن؟) لن يوافقني في ما ذهبت اليه. ولكن هل العراق هو في حقيقته إلا ذلك الصفر الوحيد؟

2

اتذكر رعيته وكلهم ملوك، طيشهم المتأني، خفتهم المزدانة بالحكمة، طربهم الهامس بالفجيعة، عشقهم الطريد مثل شبهة، كلامهم الذي يصف الشعر لكي يجعل لارتكابه معنى، كرمهم الذي يسبق الضيف الى حاجته، مروءتهم التي تسبق الرحمة.

خمرهم الذي يزيح كل كرب. نبلهم الذي ينافس العدالة. كل واحد منهم كان حريصا على أن يملأ اسمه: سرجون الاكدي وهو طفل مضاع استعاده موسى نبيا في سيرته. نبوخذ نصر الذي عرف أن التوراة لن تكتب إلا في أرض بابل فقاده الهامه الى السبي. فهل كانت جنائنه المعلقة منفى لكتاب الوحي؟ ماني الذي قهر الزرادشتية وكتب بمياه دجلة سطور خرافة موعظة الرجل الذي مشى على الماء. النعمان بن المنذر الحائر في ابهته بين الخورنق والسدير. الرشيد الذي صنع من الوقت ذهبا.

كما فعلت خديجة، وهب العراقيون الاسلام حين قدم سلامهم المسيحي وحجتهم المحكمة حين تبيض أيدي الناس من الحجج. دائما تنزلق خطواته الى الخطأ الذي يشعل مصابيح الحقيقة. يفعل ما يراه مناسبا لتمرده فيشعر الآخرون بالخطر: حلاجه في بغداد وزنجه في البصرة فيما تحتضن الكوفة فكرة متأنقة عن اللغة وجاحظه يمتزج بكتاب تهرول الملائكة بين صفحاته التي لم تكتب بعد. (هل كان الخوارج عراقيين، لكي لا نقول أن عليا كان عراقيا) ولكن كان للعراق خطأه الأكبر وخطيئته المطهرة: حسينه، الحفيد الملهم الذي عرف بعبقرية استثنائية كيف يجر القتلة الى الموقع المناسب لخلوده: العراق، لكي لا ينسى. لقد سار الى الشهادة بقدمي بطل اغريقي ليثبت انتسابه الى العراق وليقبض على آخر ذرة رمل في الساعة: جمرة عناده.

3

لدى العراقي ما يعينه على الصبر: ذهب الصحراء ونضارة النهر. يباس البدوي ورقة الريفي. طيش العاشق وحكمة المخيب. براءة العصفور وجناحا طفل. يكمن في أعماق كل عراقي الانسان الذي ثقف التاريخ بحواسه، هو الذي رأى، وهو يعرف أن البلاد الذي تغني باسمه هي صوته في البرية وهي صفاته في الخلق وهي دعاؤه الرضيع. لم يكن العراق إلا ذريعة للخلق، كان عذرا للبشرية لكي تعلن عن اختلافها المبهم. فكرة عن العبادة المتمردة ليس إلا. وهي فكرة تجريدية، مضت الى خفائها حين أصر المعتزلة على غموضهم وأبت رسائل اخوان الصفا عن البوح بأسرارها. دائما كان هناك عراق آخر، عراق يتساوى بين يديه ما يدينه وما يثق به، ما يفصح عنه وما يفضحه، ما يرتقي به الى عليين وما ينزل به الى الهاوية. فلديه من الرمل ما يملأ كل ساعات العالم، لديه من الماء ما يغرق آبار كل الصحارى بالأسئلة، ولديه من الشغف ما يجعل منه قبلة لبشرية تأخرت عن اللحاق بنبيها. ثقة العراقي هذه كانت بابا مفتوحا على الخراب. صانع التاريخ لا يتعلم منه. النجار الذي يهمل ابواب بيته. العراقي نموذج في ذلك الدرس المؤلم. يفضل أن لا يصدق كأي معتوه أن اعداءه قادمون. كان لديه دائما ما يفعله ولم تكن فكرة العداوة لتطرأ على باله أبدا. كان لديه دائما ما يقوله لاعدائه، ليعلمهم التوبة بين يديه.

4

اعداؤه نحن، أعداؤه هنا. نقيم كالسم في عروبته وفي اسلامه، في تلفته وفي يقينه، في صلاته وفي كفره، في رخائه وفي فقره، في يقظته وفي غفلته. هو الذي عرفنا ولم نعرفه على حقيقته: لقد رآنا ولم نره. سمع أصواتنا ولم ننصت لموسيقى جنازته، شعر بلمسات أكفنا وضيعنا الطريق الى دمعته. نحن هنا وهو هناك. وحين ادركنا أننا من غير عراق، كما لو أننا من غير الله، كانت آخر العربات قد مرت. وهذا الذي بقي بين أيدينا ليس عراقا.

لنسمه أي شيء محتمل، لنطلق عليه كل الأسماء الممكنة، لنهبه كل الحروف، إلا تلك التي تتشكل منها الكلمة الاولى التي تعلمها آدم: عراق. لا يحتاج التلاميذ للشرح حين يذهبون الى مدارسهم مذعورين، لا تحتاج الجثث المرمية في المزابل الى من يعينها على النظر، لا تحتاج النساء اللواتي نفين وراء حجب الى مزيد من القهر، لا يحتاج الكون الى دورة أخرى ليعرف أن الشمس قد توارت. وما هذا الذي أكتب إلا رماد جسدي.

وما هذه الحروف الا النمل الذي يلتهم صلاتي. أول الكتابة أعمى، أول الذاكرة سلة للمنسيات، أول المدن أرياف مدججة بالسلاح، أول القوانين فوضى تديرها العصابات، أول المجتمعات المدنية طوائف وقبائل متناحرة، اول اللغات أعجمي، أول الرفاهية جائع، أول المواطنين منفي. لا عراق هذا، بل مكيدة، حبالها تطوق كل الرقاب.

* شاعر وناقد من العراق يقيم في السويد

قص

الخفاش

بشير زعبيه*

■ ترى ماذا لو كتب هذه المرة تقريرا عن نفسه.. يمكنه بخبرة السنوات التي مضت أن يبتكر موضوعا لن يجعل من الأمر مغامرة كبيرة.. تحر.. استدعاء وتحقيق وربما توقيف مؤقت ثم يكون بوسعه بعد ذلك أن يروي الواقعة كما يرويها الآن هذا الشخص الذي يحادثه.. وسيبدأ بالطبع كما بدأ محدثه «فجأة جاءه رجل لا يعرفه وسأله ان كان اسمه فلانا وعندما أجابه نعم طلب منه الرجل أن يرافقه بعد أن أخبره أنه يتبع تلك الجهة..».

رغبته هذه المرة أن يكون هو الموضوع فقد كتب تقارير كثيرة عن أشخاص كثيرين أقرباء وغرباء.. أصدقاء وأعداء.. لا يهمه ما يحدث لضحاياه ولا يهمه ان كان ما يفعله قد طلب منه أو بتطوع منه كما لا يهم ان كان ما يكتبه حقيقة أو لا علاقة له بالحقيقة.. بل ان وقائع كثيرة أوردها في تقاريره كانت من نتاج خياله.. وقد استهواه ذلك فصار يقدم الى رؤسائه تقارير خيالية عن أناس حقيقيين ويشعر بالنشوة والراحة عندما يختار ضحاياه من الذين يعرفهم ويعرفونه.. وهذا الشخص الذي يستمع اليه هو أحدهم.. وقبله آخرون لا يعرفون أنهم لم يكونوا في الواقع سوى بعض ضحاياه.. تريحه أكثر حيرتهم وهم يعيدون أمامه التساؤل باستغراب لماذا حدث لهم ذلك ولا يعلمون ساعتها أنه هو من يقف وراء تلك التقارير الكيدية.. ولم تعد تكفيه حالة الرضا والراحة هذه اذ طغت عليه فكرة أن يطور تقاريره بما يؤدي الى الحاق أذى اكبر بضحاياه بعد أن بدأ يفتضح أمره ويلاحظ عزوف الكثيرين عن الاحتكاك به الى الحد الذي يصح أن تطلق عليه صفة المنبوذ.

يعلم ذلك ساعة راودته فكرة أن يكتب تقريرا عن نفسه.. لكنه لا يعلم أو ربما لا يعلم كيف أضحى مسلكه موضوعا تعددت التفسيرات والتكهنات بشأنه طال بعضها عقدة الشكل التي يعبر عنها عداؤه التلقائي للأشخاص الذين يتسمون بجميل المظهر. وذهبت أخرى الى طبيعة وضعه الاجتماعي المعقد وفشله المتكرر في علاقاته الاجتماعية وهو ما يؤكده قريبون منه ويرون تفاصيل لاحقته في بيته وغرفة نومه، وثمة قصص عن شذوذ تنقصها الدلائل وأخرى تتحدث عن ضبطه متلبسا داخل مكتبه، هناك حيث كان يعد لا شك أكثر تقاريره خيالا وايذاء.. أما ما اعترف به على لسانه فهو تعاطيه الشعوذة وقد أشاع عن نفسه أن لديه تجارب في التعامل مع الجن عن طريق وسطاء لذلك يحرص دائما على تعليق تلك التعويذة وغيرها على صدره مخفية تحت القميص ويقول أنها تقيه من أفعال الجن وممن يدبرها.. ولديه تفسيرات (جنّيّة) لأي شيء يشعر اتجاهه أنه عاجز وان عازه الدليل فلا يعوزه القسم على ذلك بكل الأيمان.. ولعل ما يجعلك تصدق على الفور ما يروى عن هذا الخليط العجيب من الصفات والسلوك الذي يندر أن يلتقي في شخص واحد هو هيئته الملفتة.. رأسه المكورة بوجه ترتسم عليه ملامح غضب دائم وعينان ضيقتان تكادا تختفيان وسط انتفاخ يوحي بأن صاحبهما قد استيقظ للتوّ من النوم وأنف كأنه يبرز بفتحتيه مباشرة عند نقطة التقاء الحاجبين لقصره وطول المسافة بينه والفم الذي يكشف عن أسنان تبدو غريبة الطول غير منتظمة كأسنان جمجمة في هيكل عظمي.

كل هذا لم يظهر بتفاصيله الا بعد أن افتضح أمره ولم يعد نفور الأسوياء منه بحاجة الى تفسير أو تأويل غير الذي صار يعلمه من حوله ويدركه هو.. ولذلك سيكتب.. ولهدف وحيد وهو أن يؤذي.

وها هو.. وحيدا وقد انتصف الليل أو يكاد وهذا وقته.. صحوه الحقيقي يبدأ حين ينام الآخرون.. من هنا يباشر طقسه المعتاد.. يجلس على مكتب قديم في غرفة يفترض أن تكون مكانا للنوم.. ضوؤها خافت لكنه يرى ويميز بوضوح بينما يصعب عليه ذلك نهارا وفي ضوء طبيعي.. ينعشه هذا السكون المجرد الا من نباح الكلاب وصراصير الليل اذ تقترب أصواتها فيسمعها مجاورة ثم تبتعد وتنأى لتعود ثانية مع حركة الريح فيدب فيه الحماس وينكب على الورق.. سيكتب وان لم يجد مدخلا لكتابة تقرير عن نفسه فلن تنقصه الأسماء.. ليكن عن ذلك الموظف الذي لا يشعر بأي ود تجاهه أو عن هذا الساكن الجديد الذي لم يعد يراه منذ أول تحية أو عن صاحب المقهى المقابل أو حتى سائق سيارة الأجرة ذاك.. سيختار أحدهم..

يبدأ عادة بخربشة ممهدا للكتابة وبعد ثوان سيكون قد خط سطرين على الأقل من التقرير ولن يتوقف حتى يبدأ الليل يفقد سواده وسكونه.. حينها يطوي أوراقه بعناية وكأنها أوراق من البلور يخشى أن تسقط من يديه وتنكسر ويضعها بعناية في درج المكتب قبل أن يذهب لينام.. لكنه على غير العادة هذه الليلة فقد مرت الثواني وتلتها دقائق وهو لا يزال في خربشته محولا بياض الصفحة الى رسومات عشوائية طولية وعرضية في امكانه أن يراها ويفسرها كيفما يشاء ، فهي أشكال مجردة تارة وأحيانا أحرف وأرقام متداخلة وبعضها يأخذ بالصدفة شكل كائن ما فيحدد الخطوط بتركيز اكثر فتتضح المعالم ويبرز شكل الكائن واضحا.. والشكل الذي أمامه الآن تداخل فيه التكوين بين هيكل لطائر أو حيوان.. وعندما حاول تحديده بخطوط أغمق صار على هيئة خفاش فاردا جناحين عريضين ينحشر بينهما رأس فأري بفم مفتوح.. تأمل الشكل قليلا ورفع رأسه متجها بنظره نحو شباك الغرفة المطل على العتمة واضعا القلم في فمه كمن يضع سيجارة.. ثم رفع الورقة مادا يده على مستوى رأسه يتأمل عن بعد صورة الخفاش فيها وعندما هم بوضعها على المكتب من جديد لاح أمام عينيه انعكاس صورة وجهه على اللوح الزجاجي الذي يغطي سطح المكتب.. استوقفته الصورة فأخذ يتفحصها كأنه يرى وجهه للمرة الأولى.. اقترب نحوها فاقترب انعكاس الصورة نحوه وهنا تراجع على الفور فالصورة التي انعكست أمامه لم تعد صورته.. قرب وجهه مرة أخرى نحو صورته المنعكسة محركا أنفه كما تفعل الأرنب فيحرك الوجه أنفه ولكن الذي يراه ليس وجهه.. انه يعرف هذا الوجه فهو وجه ذلك الموظف الذي لا يشعر بأي ود تجاهه ولطالما تمنى أن يؤذيه ويقصيه وها هي لحظته الآن.. «أنت ستكون موضوعي».. و «سأكتب التقرير» قالها في داخله وهو لا يزال ينظر الى صورة وجهه هو المنعكسة على الزجاج.

أعاد وضع الورق على سطح المكتب فاحتجب الوجه وعادت صورة الخفاش أمامه بينما تحرك خلف زجاج الشباك ضوء تدرج بهدوء نحو الوضوح فيما يظهر أن غيمة انزاحت ببطء لتفسح المجال بالبطء نفسه لنور القمر ثم للقمر وهو يواجهه تماما مضيئا مكتمل التفاصيل.. ولحظة يراه كذلك يضغط على القلم بين أسنانه.. يعضه أولا ثم ينكب فجأة على الورق وكأنه ينقض على فريسة ويبدأ.

ينحني أكثر فتكاد رأسه تلامس الورق ويحركها بحدّة شمالا ويمينا متابعا حركة يده حتى ليبدو من فرط الحماس وكأنّه يكتب بأنيابه.

* كاتب من ليبيا

القاهرة ـ تشرين الثاني (نوفمبر) 2005